

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد خاتم أنبيائه ورسوله

تأقت نفسي لأن أكون معلماً ، فاتخذت في حياتي العلمية الطريق التي توصلني إلى هذا الغرض ، وما هو إلا أن حصلت على إجازة في التدريس من مدرسة المعلمين الخديوية (المعلمين السلطانية) وكان أستاذ التاريخ فيها حضرة صاحب العزة أحمد بك صالح . هذا الأستاذ يدرس التاريخ على نحو يبين المؤلف في معاهد التعليم الأخرى في مصر ، فهو يسهب في الشرح ويختصر في المذكرات ، فتطلعت نفسي منذ ذلك الحين إلى درس التاريخ ، وأخذت بعد الخروج من المدرسة أبحث عن معهد أستطيع فيه أن أوافي النفس بما كانت تتطلع إليه ، فلم أجد في القطار مكاناً أتمكن فيه من الدرس على طريقة أوسع سوى الجامعة المصرية ، فانتسبت إليها في أكتوبر سنة ١٩١٥ وما كدت أسمع فيها بعض المحاضرات في المواد المختلفة حتى رأيت أنني قد وجدت ضالتي التي كنت أنشدها ، وكأن الجامعة بذلك قربتني مرة أخرى من العلم وتلقيه

لذلك أتقدم إلى الأستاذ أحمد بك بجزيل الشكر ووافر الثناء ، فلولاه ولولا طريقته التي حببت إلي التاريخ لما تشرفت بأن أقوم اليوم بهذا المقام ، ولما كان مثلي إلا كمثل غيري من كثير من الشبان الذين إذا ما غادروا

جدران مدارسهم وفتح الله عليهم بابا للحياة غير المدرسية ، اتخذوا (الملاهي) أندية لهم ، بعيدين عن العلم وأهله وذويه ، فكان الأستاذ بطريقته هذه قد حبيب إلى الاسترسال في طلب العلم وانتهاج طريق يخالف طريق أكثر الشبان في بلدنا

قد يتبادر إلى بعض من يسمع حديثي هذا أني آخذ على الأستاذ قصر مذكراته في دروسه . كلا فان الذي فعله الأستاذ إنما كان رغبة منه في تقصير الوقت على الطلبة إذا ما أرادوا تذكر دروسهم

قضيت بالجامعة المدة التي أوجبها القانون على المنتسبين إليها وانتهيت من الامتحانات الخصوصية في مدة ثلاث السنوات الأولى ، ثم انتسبت في السنة الرابعة تنفيذا لما يراه ذلك القانون دون أن أقرر على نفسي الحضور لتلقي الدروس إلا لمجرد طلب المزيد

وفي اعتقادي أنه لو جعلت الجامعة هذه السنة الرابعة خاصة بتلقي محاضرات فيما يسمونه فلسفة التاريخ ، أو بعبارة أخرى ابحاثا تاريخية خاصة لطلبة الدكتوراه ، يقوم فيها حضرات الأساتذة بمناقشة الطلبة مناقشة تفرس فيهم حب البحث الذي يوصلهم إلى الاستنتاج بما يقرأون ، لسهل على الطلبة المتقدمين لهذا الامتحان كتابة رسائلهم في موضوعاتهم المختلفة

أمضيت السنة الرابعة وأنا لا أدري في أي موضوع أكتب رسالتي ؛ فكنت أختلف إلى الجامعة أسمع فيها حضرات الأساتذة على حسب عادتي من جهة ، ولعل أقف على موضوع أكتب فيه من جهة أخرى ، فأنتهى عزمي إلى الكتابة في (صريح الدين يوسف بن أيوب) بعد أن مر أمام

الخيلة كثير من الموضوعات ، شأن كل من يريد اختيار واحد من كثير
والذى حجب إلى هذا الرجل واستقصاء أمره ، ما قام به من الأعمال
الجليلة في وقت انحلت فيه العزائم وقصرت الهمم إلا فيما يعود على النفس
من المنافع والمزايا الخاصة ، وكذلك أعماله الباهرة التي خدمت الشرق
والشرقيين أكبر خدمة في التاريخ ، ذلك انه صد أوروبا في جاهليتها الأولى
وهي على وشك أن تجتاح الشرق بهمجيتها هذه ، فأبعد شرها عن الشرق
وأهلها . على أن ما أداه من الخدمة الدينية لا تقل عن هذه ، فقد قضى على
التشيع الذى انتشر في مصر وما جاورها من الأقاليم ، ففضى على الخلافة
الفاطمية ووضع حداً لتلك الفوضى التي كانت تقوم في وادي النيل ، وكون
قوة إسلامية ارتعدت منها فرائص أوروبا كلها

أخذت العدة لذلك منذ حوادث مارس سنة ١٩٠٩ ، فجمعت طائفة
من الكتب العربية أستأنس بها وأسترشد فيما عساني أن أقول ، فوجدت
أكثرها يكاد يتطابق في اللفظ والمعنى مما يجعل الإنسان يعتقد أن المؤلفين
جميعاً قد استقوا من مصدر واحد فيما كتبوا ، ويظهر لى أن التزام أكثر
مؤرخي العرب سرد الحوادث سنة بعد أخرى ، جعلهم لا يعنون كثيراً
بالبحث في الحوادث وأسبابها ، فاقصروا على سردها وأسماء من قاموا بها ،
فترى ابن الأثير في الكامل وأبا الفدا في المختصر في أخبار البشر ، وميخائيل
بك شارو بيم في الكافي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين قد ساروا على
هذا النمط . ولو كتب ابن خلدون في العبر باستقصاء أطول لجاء كتابه أحسن
مما هو الآن . اما صاحب كتاب الروضتين فقد كانت مهمته أن يجمع

الروايات المتعددة من غير أن يبدي عناية خاصة بواحدة منها ومناقشتها ،
أما العماد في الفتح القسى فلا يختلف عن هؤلاء إلا بتفصيل أكثر ، ويزيد
عنهم بعنايته بتزويق عبارة الكتاب وجعلها إلى الموضوعات الأنشائية
المسجوعة أقرب منها إلى سرد الحوادث التاريخية . ولا ننسى أن العماد كان
وزير صلاح الدين ، وقد علمتنا الأيام مقدار مبالغات المتصلين بالسلطين
والملوك

أما كتب الأفرنج فقد كتب أكثرها عن صلاح الدين في سياق
حديثها عن الحروب الصليبية ولم يتصد للكتابة على صلاح الدين منفرداً
في اللغة الإنجليزية إلا استانلى اين پول على مقدار ما وصل إليه علمى
وعدم معرفتى بلغات أجنبية أخرى غير الإنجليزية (وان كنت أعرف
مقداراً من الفرنسية لا يمكننى من درس كتب التاريخ المكتوبة بها)
ينمى أن أتعرض لما كتب في هذه الكتب عن صلاح الدين . وفي هذا المقام
أتقدم إلى أولياء الأمر في الجامعة راجياً أن يدخلوا فيها درس غير الفرنسية
والإنجليزية من اللغات الأجنبية الحية . على أن هذا الأمر قد أدركته
مدارس أوروبا لا جامعاتها فختت مدارس إنجلترا مثلاً على طابى التقدم
لامتحان (المتركيوليشن) أن يعرفوا لغتين غير اللغة الإنجليزية مع أن
هذه الشهادة ليست إلا في مرتبة الشهادة الدراسية الثانوية عندنا

والحق أن الذى يراد إعداده لدراسة الآداب وفروعها أولى بأن
يعرف عدة لغات أجنبية راقية ليتمكن من الاطلاع على آراء العلماء
المختلفى الجنسيات واللغات والنزعات في كل أمة متحضرة ، فالإنجليزية ينظر

إلى الحروب الصليبية وأبطالها بنظر يختلف كثيراً عن نظر الفرنسي لها
وهما معاً يخالفان ما يراه الألمانى والآيتالى وهكذا

وفى اعتقادى أن ما كتبه ابن الأثير وأبو الفداء ومن سار على
شا كلتهما فى علم التاريخ لم يقصدوا به سوى أن يلم المطلع على ما كتبوا
بأحوال العالم على وجه الاختصار ، ولو أن ابن الأثير وابن خلدون
وأبشامة وغيرهم وضعوا أمام أعينهم درس الحوادث ومناقشتها مناقشة
الناقد البصير ، كانت أعمالهم تقصر عن استيفاء الموضوعات التى كتبوا فيها ،
لكنهم لو عمدوا إلى الحوادث الهامة وكتبوها على النحو الذى أردت
لكانوا قد أدوا إلى العالم العربى خدمة تذكر فتشكر

تكثر الشكوى الآن من ندرة الكتب العربية فى الموضوعات
المختلفة حسب الأسلوب الحديث ، وهى شكوى قد تقوم على شىء من
الحق ، على أن الذى يدهشنى من أمرها أن ممن يشكون ويتألمون طائفة
من الشبان الذين ذهبوا إلى أوروبا وتعلموا فيها ووقفوا على الحركة العلمية
هناك . يرون هذه القلة نقصاً كبيراً فى حياتنا العلمية ولكنهم لا يعملون
على سد هذا النقص . فلماذا إذن يشكون ويتألمون ؟ لأن الألفاظ العربية
التي تساعد على إدخال النظام الحديث فى الكتابة قليلة كما يدعيه بعض
حضراتهم ؟ لا ، فقد تبين أن اللغة العربية من أغنى اللغات بألفاظها ومعانيها ،
وباب التعريب والاشتقاق واستعمال المجاز واسع مفتوح . أم لأن حضراتهم
لم يوفقوا بعد إلى سد هذا النقص الذى يتألمون مع المتألمين له ؟
والذى أراه أنهم لم يتخذوا لهم نادياً يلم شعهم ، ويجمع كلمهم ، ولو

أنهم كونوا لهم جماعة يعملون فيها ممّا واشتغل كل بما تخصص فيه من العلوم والفنون ، لظهر في مصر من الكتب ما لا يبقى معه موضع لتلك الشكوى ، لا سيما إذا لم يقصروا همهم على الكتب المدرسية ، ولم يشغلهم رواجها أو كسادها ، فإن الذي ينقصنا قبل كل شيء إنما هي العناية بالعلم لذاته لا لما ينتج عنه من فائدة مادية أو معنوية ، وما كان للأمم أن تهض إلا إذا قام على مصالحتها العلمية نفر من اليقظين الذين وقفوا أنفسهم على ذلك لا يرجون من ورائه إلا أن يقال عنهم إنهم فهموا واجبه فادّوه وقاموا به ، ومن هذه اليقظة غير الشبان المتعامين

على أنني لا أقيل أكثر الذين لم يذهبوا إلى مدارس أوروبا من بعض اللوم ، فوطنهم يناديهم كما ينادى السابقين على السواء ، فهل أجابوه ؟ كلا ، يدل على ذلك كثرة الملاحى وانكباب الناس عليها في مدتنا ، وعدم تقدم الحركة العلمية وسرعة انتشارها . لا أرى سبباً لهذا الاقموذنا واستنامتنا إلى الكسل والراحة ، أو إلى اللهو واللعب منذ حصولنا على الشهادات النهائية والوصول إلى باب الرزق

لا يقوم العلم إلا برجال ينصرونه ، ولا تقوى أمة سلكت سبيل الغواية والخمول وتركت حياة الفضيلة والجد . فعلى الذين علموا أن يعلموا ، وليكن من غرضنا نشر العلوم بلغتنا حتى تقوى ، فتقوى الأمة ، ولننزع من نفوسنا حب المال إلى هذا الحد الذى أفضى بنا إلى خمول الذهن ، والأعراض عما لا يكسب المال . لنعمل حتى نعيد إلى الأمة العربية مجدها القديم

وسمعتها العلمية الماضية أيام الدولة العباسية في عصرها الذهبي
إخترت صلاح الدين موضوعاً لهذه الرسالة ولكني قبل أن أشرع
في تفصيل حياته مضطر إلى أن أقدم بين يدي ذلك فصلين لا بد منهما ،
الأول في الدولة العباسية والثاني في الحروب الصليبية
وأنا أرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث إلى شيء من النفع
ولو قليل

أحمد بيلى

١٨ رجب سنة ١٣٣٨

٧ إبريل سنة ١٩٢٠